

فَكَانَ هَآئِلٌ

— في القطار (١) —

قال الراوي

دعني احوال صحية الى ان اترك لندن واسافر الى ادمبرج وكنت على وشك البرء من كسرٍ برجلي اقعدي مدة في البيت فأخذت عربةً اقلتي الى المحطة فبلغتها قبل قيام القطار برع ساعة . فابتعت تذكري ودخلت احدى العربات ولم يكن فيها سواي فاخترت محلاً مريحاً وجلست فيه . وكان الجو بارداً جداً والتج يتساقط جوالح كبيرة كالقطن فوضعت دثاراً صفيقاً على كتيّ وتالاً من الصوف الغليظ حول جسيمي ثم اخرجت كتاباً اخذت اقرأ فيه وكنت قد استصحبته ليخفف عني بعض الملل في ذلك السفر الطويل . وبعد بضع دقائق كنت ارى المسافرين يردون الى المحطة افراداً وازواجاً فتمنيت ان يرافقني في عرّيتي بعض من تطيب لي محادثتهم فاحصل على بعض التسلية . فما مضى الا هنيهة حتى فتح باب عرّيتي ودخلت منه فتاة لا اظنها بلغت العشرين ولكنها رقيقة الخصر معتدلة القوام يظهر من خلال ثيابها نورٌ يتدفق من وجهها اللطيف ونارٌ تنبعث من عيني احده من السهام فجلست بازائي . وكان فيها جاذب جعلني لا ارفع نظري منها وحدثني نفسي اننا سنعارف وسنحدث وتصادق وستحبني واحبها . . . ولكن ما اجهل الشباب واما اسرعهم في بناء القصور في الهواء

وقطع مجرى افكاري افتتاح الباب ثانية اذ دخل منه رجل اسكتلندي طويل القامة ذو لحية طويلة شقراء لم يكن معه شيء من الامتعة فتخطى الى طرف الغرفة وجلس ثم استخرج من جيبه جريدة واستغرق في قراءتها . ودخلت بعده سيدة

(١) معربة عن الانكليزية بقلم سيب افندي المشعلاني

متقدمة في العمر كبيرة الجسم ما صدقت ان وضعت امتعتها والتفت بشالها الصوفي حتى جلست لتستريح . وجاء بعدها ايضاً رجل عرفته انه من تجار لندن فجلس الى جانبي

اما انا فجعلت انتقد هؤلاء القوم بنظر خفي لا يرى من منهم تطيب لي محادثته فكنت كلما نظرت الى احدهم يتحول نظري رغماً عني الى الفتاة الاولى وهي جالسة على المقعد الذي امامي وشعرت بشيء في صدري يوحي الي ان هذه الملك من دون الباوين ستكون رفيقتي وتسليتي في السفر . وبينما كنا جميعنا في سكوت تام اذا بالتاجر قد نظر من نافذة العربدة وقال هوذا احد رجال الشحنة السريين فلا بد من حصول حادثة في هذا السفر . ونظرت فاذا الجميع قد تحولت ابصارهم الى النافذة وقالت السيدة الكبيرة اين هو وكيف عرفت انه من رجال الشحنة . قال هو ذا — وأشار الى رجل طويل القامة — وقد عرفته من حداثته فلا يلبس هذه الاحذية الا رجال الشرطة . ثم ان الرجل انزل قبعته الى ما فوق عينيه كأنه يود ان يخفيهما وهما مع ذلك تندفمان بنظر حاد كأنهما مصباحان كهربائيان يستعملهما للبحث عن الغوامض وقد رأيته مرّة عدة دفعات امام القطار كأنه يراقب احداً . وكنا جميعنا نراقب الرجل فوجدناه كما وصفه التاجر واذا ذاك صفر القطار علامة المسير وللحال فُتح باب غرفتنا ودخل منه الرجل المذكور ويده صندوق من الجلد فرفع قبعته اكراماً للجلوس ثم وضع صندوقه وجلس . وما كاد يستقر به المقام حتى رأيت دلائل الدهش والخوف والانتباض قد ارتسمت على وجه كل من رفاقي ولا سيما الفتاة فانها اقتبضت شديداً ورفعت شالها الى كتفها ثم طأطأت رأسها بحيث لا يظهر وجهها . اما الباوين فمنهم من حوّل وجهه الى النافذة ومنهم من ستر وجهه بجريده او كتابه كأنهم قد استغلوا هذا الضيف بينهم او كأن كلا منهم قد تصور ان الشرطي انما هو قادم لالقاء القبض عليه . وراجعت انا افكاري فلم اتذكر اني فعلت شيئاً يستوجب تدخل رجال الحكومة فيه فلم ابتئس من قدوم هذا المسافر ورأيت انني الوحيد بين هؤلاء في تقاوة الضمير فجلست اراقب حركاتهم وقد رأيت فيها ما يلد

لي ولكنني خشيت على الفتاة ووددت ان اعلم ما الم بها واسعى في مساعدتها اذا كان ذلك في امكاني

. وكان القطار قد سار بنا منذ دخول الرجل بين هزيم العود وعصف الرياح وسقوط الثلج وما زلنا كذلك حتى ابعدنا عن لندن وهجم الظلام فلم نعد نرى شيئاً سوى ارضٍ بيضاء مكسوة بالثلج . ولحظت ان الفتاة اخرجت دفتراً من جيبها عرفتُه انه دليل المحطات فنظرت اليه ثم نظرت في ساعتها وتنفست كمن سُري عنها . واذا ذاك شعرت ان القطار قد خفف مسيره الى ان وقف وسمعنا احداً رجاله ينادي باسم المحطة التي وقف فيها

واطلَّ الرجل الغريب من النافذة فتبعته بنظري قليلاً ولما عدت الى نفسي رأيت محل الفتاة فارغاً ولم اجدها لاهي ولا امتعتها ففجيت جداً من هذا الاختفاء السريع وعلى الخصوص لانني كنت قد رأيت تذكرتها وعرفت انها مسافرة ايضاً الى ادمبرج وتحققت رغماً عن صوت ضميري ان الفتاة شأتاني محي . رجل الشحنة السري والابلاً ما اظهرت ذلك الاضطراب حال دخوله وهذا الاختفاء عند اول فرصة ولكي اجتهدت ان انزع هذا الفكر من رأسي لان عواطفي دفعتني الى محبة الفتاة والدفاع عنها . ثم زاد تعجبي حين رأيت الاسكتلندي قد خرج ايضاً خلسةً وتبعته السيدة الكبيرة وقد حملت امتعتها وآخر الكل خرج التاجر ولم يبقَ في الغرفة سواي مع الرجل الغريب

وبينا انا اعجب مما ارى اذا بالغريب قد ادخل رأسه من النافذة ثم حل صندوقه وبدون أن يلتفت الى احد خرج ايضاً من الغرفة وبقيت وحدي . فلم املك نفسي من الضحك على تشخيص هذه الرواية امامي وانا اودّ ان اصل الى آخرها وأرى ما ينتهي اليه الامر

وبعد نحو عشر دقائق عاد الرجل الغريب بصندوقه فوضعه في محله وجلس حيث كان أولاً وعاد القطار الى مسيره . وكان الرجل انتبه الى خلوا الغرفة فظهر علامة التعجب ثم نظر اليّ وقال ارى اصحابنا قد خرجوا جميعاً من هنا وقد فهمت

انهم كلهم مسافرون الى ادمبرج فما سبب تركهم هذه الغرفة يا ترى . فقلت لعلهم رأوا اصحاباً لهم في محلاتٍ اخرى فذهبوا لمراقبتهم . قال لا اظن ذلك بل لعلهم ازعجهم حضوري ففضلوا الابتعاد عني . فقلت بتبسم خفيف وانا من رأيك فانهم مذ عرفوا انك من رجال الشحنة تغيرت هياتهم وشعرت انهم كانوا يفضلون بعادك على مراقبتهم . فقال ضاحكاً وكيف عرفوا اني من رجال الشحنة . ثم كأنه فطن من نفسه فقال حقاً ان هذه الاحذية تدل علينا مهما اجتهدنا في التخفي ولا ادري لماذا لا تنبئه الحكومة الى هذا الامر وتسمح لنا بلبس ما نراه موافقاً . ثم اتبع ذلك بتهمة غريبة لم ادرك معناها . فقلت له اذا ظن اصحابي في محله وانت تسعى في القبض على احد المسافرين . فقال نعم ان بعض مهرة اللصوص المشهورين بسرقة الجواهر والحلى قد سرق صندوقاً فيه مبلغ من المصوغات الثمينة والحجارة الكريمة وهو في القطار وبالتقرب منا . فقلت بتعجب اين هو وقد رايت ان يكون الرجل ظن بي سوءاً . فقال هو في العربة الثانية التي بارأنا . فقلت له بما انك قد عرفته فلماذا لم تلق عليه القبض قبل ان يركن الى الفرار . قال هيئات ان يفر فانا اتبع له من ظله الى ان تبلغ المحطة الاخرى فقد ارسلت اليها رسالة برقية وينظرنا فيها نفر من الشرطة للقبض عليه

وسار القطار بنا مدة والظلمة تزداد سواداً والثلج يزداد تساقطاً . فاخذ رفيقي صندوقه وكان اخبرني ان اسمه فيليب فرأيت احرف اسمه على الصندوق . ثم وضع يده في جيبه وقال آه فقد نسيت مفتاح هذا الصندوق في البيت فكيف العمل لفتحه . فقلت وماذا تريد ان تأخذ منه . قال قد بلغ مني الجوع وفي هذا الصندوق شيء من الكعك . فرفت يدي الى جهة صندوقي وقلت له لا بأس فان معي شيئاً من الزاد وانا جائع ايضاً فاسمح لي ان اشاركك في طعامي . فقال لا لا والح علي ان لا افعل ولم يمضي من فتح صندوقي بل اخذ من جيبه آلة حديدية وضعها بين طبقتي صندوقه بمبارة فسمعت انكسار الاقفال . ثم ادخل يده فيه واستخرج عدداً من اللفائف فاودعها جيوبه وعاد فشد الصندوق برباطه الجلدي وارجمه الى مكانه واخذ واحدة

من تلك اللغائف ففتحها واذا فيها مقدار من الكعك اعطاني شيئاً منه فجعلنا نأكل وتحدث والقطار ينهب الارض نهباً

وبعد حين قال لي رفيقي فيليب انه يخشى من اشتداد سقوط الثلج ان يغمر الخط الحديدي ويمنع مسير القطار وكان نبوته جاءت في وقتها فلم نشعر الا وقد خف بنا المسير شيئاً فشيئاً الى ان وقف القطار في وسط ظلمة حالكة كادت تستر الانوار الكهر بآية القوية فلا ينبعث منها الا نور ضعيف جداً . وسمعنا السائق يقول ان القطار قد رزح تحت اثقال الثلج المتراكم عليه وقد سُدَّ طريقه فلا يستطيع التقدم وللحال رأيت ان جميع المسافرين قد اطلوا من نوافذهم ليروا ما الخبر . اما رفيقي فقال لي انه يخشى ان يغتنم اللص الفرصة ويهرب في تلك الظلمة فترك صندوقه واوصاني به فوعده ان احتفظ به وخرج . اما انا ففجيت من امره لانه لما خرج اول مرة وكان صندوقه مقفلاً اخذه معه ولم يأمني عليه فكيف فعل ذلك الآن بعد ان كسر اقفال الصندوق . واتبعته نظري حتى خرج من الباب وسار بضع خطوات ثم اخفاه الظلام عني

وبينا المسافرون في حيرة شديدة رأينا نوراً يقترب الينا من جهة اخرى حتى قارب القطار واذا برجل يحمل مصباحاً كبيراً فنادى باعلى صوته قائلاً ايها السادة ان لي نزلاً على بعد نحو مئتي خطوة من هنا وفيه ما يلزم من الطعام والاسرة لمن يشاء فاذا اراد احد ان يشرفني الى ان ينقطع الثلج ويعود القطار الى مسيره فاهلاً ومرحباً . وجاءت دعوة هذا الرجل كهبة سماوية لجميعنا فصرخ الكل نعم نذهب نعم نذهب ولم يكن كلبج البصر حتى رأيت الركاب يخرجون من غرهم وقد تأبطوا امتعتهم وتبعوا صاحب الدعوة . اما انا فخطر لي ان اذهب ايضاً ولكن رأيت ان انتظر رجوع فيليب لانه لا يصح ان اترك امتعته بعد ان اوصاني بها ولكن بعد ما انتظرت كثيراً ولم يرجع خشيت ان يسبقني القوم فلا اعود اتمكن من معرفة الطريق فنهضت وحملت باليد الواحدة صندوقي وباليد الاخرى صندوق فيليب وسرت وراء الجمع وكان الالم الباقي في رجلي والحمل الذي يمنياني من السرعة فما بلغت

الزلا وكان الجميع قد سبقوني فدخلت . واجلت نظري في الردهة لأجد لي محلاً فلم أجد ورأيت في بعض الزوايا جمعية مؤلفة من رفاقي الاولين الذين كانوا معي عند ابتداء السفر فسرت لاجلس بجانبهم ولكنهم ما رأوني حتى بدت على وجوههم علامات الاشمئزاز ولحظت ذلك فوضعت الصندوقين على الارض وجلست عليهما وكانت عينايتان تتقلان بين ذلك الجمع . وطرقت اذني بعض كلمات من رفاقي فهمت منها انهم يحسبونني ايضاً من الشحنة السريين والا لما بقيت وحدي مع الشحني في العربة والذي زاد اعتقادهم هذا ما رأوه حين دخولي اذ كنت حاملاً صندوق فيليب معي فعلت اذ ذاك سبب نظرم اليّ بكره حين دخلت . وبعد قليل جاءني الرجل الاسكتلندي فوقف بجانبني وقال قد علمتُ انك من رجال الشحنة ايضاً فقل لي بصراحة هل تقصدونني انا . فتبسمت وقلت كلا . وكأنه أُفِرَج عنه فتنفس الصعداء وقال انني لم اترك زوجتي الا عن اسباب موجبة انا مستعد لايضاحها عند الطلب وقد ظننت انها سعت لدى الحكومة في طلب ارجاعي . فادركت اذ ذاك سبب اضطرابه اول ما علم بوجود شحني سرّي وطمأنته فشكرني ورجع الى مكانه . فقلت في نفسي لا بد ان يكون للباقيين اسرارٌ اخرى وصرت ارجب ان اعرف السر الذي للفتاة فأتيتي . وبعد قليل جاءني السيدة الكبيرة فقالت اذا كنت انا غرضكم فارجو منك ان لا تسمح باهانتني امام الحضور وانا مستعدة ان اتلو عليك قصتي فتعلم منها انه لم يكن لي دخلٌ قط في الامر . وقبل ان تتم حديثها وتفضح اسرارها اشرت اليها بالسكوت وقلت لها كوني مطمئنة ايها السيدة فلست انت غرضنا في هذه الليلة . فاشرق جبينها فرحاً وسرّي عنها وعادت الى كرسيها . ثم جاء بعدها التاجر ومشى امامي ذهاباً واياباً كأنه ينتظر ان افاتحه انا بالحديث وكان في يده كتاب مكتوب عليه اسم سميتُ عرفت انه اسمه . ثم توقف فجأة وجاء اليّ فقال ارجو منك ايها السيد ان تتأكد انني لم افر من لندن بقصد ان لا ادفع ديوني التي تُستحقّ غداً ولكنني انتظر مبلغاً سيرد عليّ بعد يومين فرأيت الافضل ان اغيب عن محل شغلي الى حين ورود المال وهذه هي الحقيقة بتامها . فقلت له انا اعلم استقامتك

يا حضرة المستر سميث فكن براحة بال فاننا لا نمسك بسوء ما دام في نيتك الوفاء
فسرَّ الرجل جدًّا لجوابي وتعجب حين رأيَّ أكله باسمه فشكرني وذهب . وكنت
انتظر ان تقدم اليَّ الفتاة بعده ولكنها لم تفعل بل زادت في التخفي ورأى اصحابها
وهي تودَّ ان لا يرى احدٌ وجهها . وكانت نفسي تحدثني ان اذهب انا اليها واكلها
واذا بباب الردهة قد فتح فسمعنا ضجةً ولغطاً في الخارج ثم دخل صاحب النزل
فاحلق الجميع به مستنهمين عن السبب فقال ان دوقاً في ادمبرج بعثت الى وكيلها
في لندن ان يرسل اليها جواهرها وحليها المودعة في البنك لتلبسها في حفلة رسمية
ولم يأمن الوكيل على هذه الجواهر فوضعها في صندوق وسافر به بنفسه ليوصله سالماً .
وكان يخشى ان يصادفه حادث في الطريق فطلب من ادارة الشحنة ان ترسل معه
اثنين من رجالها يحرسانه في الطريق . وعلم بذلك احد دهاة اللصوص فسافر في
نفس القطار ولما وقف القطار في اول محطة تفقد الوكيل صندوقه فوجده خالياً من
تلك الجواهر فطار رشده واعلم الحارسين فوعدها بالقاء القبض على السارق . وقد
امسكاه الآن حقيقة وهو يقاوم ويمانع ولكنهما تمكنا من ايثاقه وسجنه في
الغرفة السفلى

فتعجب الجميع من هذا الحادث ونظرت الى رفاقي وخصوصاً الفتاة فرأيتهن
قد عادت النضارة الى وجوههم وتحققوا انهم في امان . وكنت انا اعجب من مهارة
فيليب في القبض على الجاني واقول في نفسي انه لا بد ان ينال مكافأة وافرة . ثم
فتح باب الردهة ثانية ودخل منه رجل طويل القامة اشقر اللون اجال نظره الحاد
في الغرفة حتى وقع عليَّ فاقترب مني وهمس في اذني قائلاً هات هذا الصندوق
واتبعني . فقلت له انه ليس صندوقي وانه للشرطي فيليب اوصاني به فلا يمكنني
التصرف فيه . قبل رجوعه . فتبسم الرجل وقال ليس فيليب بشرطي بل هو ادمي
لصوص انكلكرا وقد اصبح في قبضتنا فهاات الصندوق واتبعني . ولو وقعت عليَّ
صاعقة في تلك الدقيقة لما اثرت فيَّ اكثر من الكلام الذي سمعته وقلت سيجسبوني
الآن شريكاً له ويلقى عليَّ القبض ولكنني شددت عزائي فحملت الصندوق

وسرت وراء الرجل . وما بلغت باب الردهة حتى سمعت جميع المسافرين يقول بعضهم لبعض انني انا احد الشحنة فسرني ذلك وقلت في نفسي انه اشرف من اعتقادهم اني شريك السارق . وذهب بي الدليل الى غرفة اخرى فيها فيليب موثق الايدي والى جانبه الشحني الآخر فلما وقعت عينه عليّ تبسم طويلاً كأنه في تمام السرور . وطلب الشحني تقريراً عما اعله عن فيليب فاخبرته بجميع ما حصل وظهر اذ ذلك من اقرار فيليب انه علم بسفر الوكيل بالجواهر فابتاع صندوقاً يشابه صندوق الوكيل ولما وقف القطار في المحطة الاولى وخرج من غرفتي حاملاً صندوقه ذهب الى الغرفة الثانية وبهارة غريبة انتشل صندوق الوكيل ووضع صندوقه مكانه ثم ابتاع قليلاً من الكمك وعاد الى غرفتي وانه لما كسر اقفال الصندوق واخرج منه اللغائف التي قال انها مأكولات لم تكن الا اللعب التي اودعت فيها تلك الحلي الثمينة . وكان رجلا الشحنة قد استدعيا وكيل الدوقة ايضاً فاخذوا يخرجون من جيوب فيليب تلك اللغائف وهو يفحصها حتى استرجع الجميع ووجد انه لم يفقد له شيء ثم اخذ الرجلان فيليب وسارا به الى حيث يسلماناه الى القضاء وكان يسير بينهما ضاحكاً . ثم نظر اليّ وقال الى الملتقي ايها الرفيق فقد اعجبتني طيبة قلبك وسلامة صدرك وعسى اني في النوبة الآتية يصادفني من اعتمد عليه نظيرك اما انا فرجعت الى الردهة وكان الجميع منتظرين ليفهموا نهاية الامر فاخذوا يسألوني عن السبب وكانوا كما ذكرت يعتقدون انني من رجال الشحنة فحافظت على اعتقادهم وقلت لهم بافتخار اننا قبضنا على اللص واسترجعنا السرقة الى صاحبها وارسلنا اللص الى السجن . فبدت علائم العجب على جميع الحاضرين وجعلوا ينظرون اليّ بوقار واحترام حتى ان الفتاة نفسها لم تعد تخاف مني بل جاءت الي جاني وجعلت تمحاذني

وبعد ان تناولت شيئاً من القوت في النزل انصرفنا الى غرفنا ونمنا وعند ظهر اليوم الثاني قيل لنا ان الطريق قد كُسح الثلج عنها وان القطار على اهبة المسير فاسرعنا اليه للحال واجتهدت هذه المرة ان لا افارق الفتاة فجلست معها في غرفة